

الداء والدواء

اللقاء التاسع عشر

﴿فَصَلِّ الْمَعْصِيَةَ تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ﴾

﴿١٩﴾ وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَهَّا تُنْسِي الْعَبْدَ نَفْسَهُ، وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ أَهْلَهَا وَأَفْسَدَهَا وَأَهْلَكَهَا، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَنْسَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ؟ وَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ فَأَيُّ شَيْءٍ يَذْكُرُ؟ وَمَا مَعْنَى نَسْيَانِهِ نَفْسَهُ؟

﴿٢٠﴾ قِيلَ: نَعَمْ يَنْسَى نَفْسَهُ أَعْظَمَ نَسْيَانٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [سُورَةُ الْحَشْرِ: ١٩].

﴿٢١﴾ فَلَمَّا نَسُوا رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُمْ وَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ٦٧].

﴿٢٢﴾ فَعَاقَبَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَسِيَهُ عُقُوبَتَيْنِ:

■ إِحْدَاهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ.

■ وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ.

﴿٢٣﴾ وَنَسْيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ: إِهْمَالُهُ، وَتَرْكُهُ، وَتَحْلِيهِ عَنْهُ، وَإِضَاعَتُهُ، فَاهْلَاكَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنَ الْيَدِ لِلْقَمِ، وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ، فَهُوَ: إِنْسَاؤُهُ لِحُطُوطِهَا الْعَالِيَةِ، وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَقِلَاحِهَا، وَإِضْلَاحِهَا، وَمَا تَكْمُلُ بِهِ نَسْيَانِهِ ذَلِكَ كُلِّهِ جَمِيعِهِ فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ، وَلَا يَجْعَلُهُ عَلَى ذِكْرِهِ، وَلَا يَصْرِفُ إِلَيْهِ هِمَّتَهُ فَيَرْغَبُ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمُرُّ بِبَالِهِ حَتَّى يَقْصِدَهُ وَيُؤَثِّرَهُ.

﴿٢٤﴾ وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَى أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ فَأَصْلُهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، وَكُلَّ شَرٍّ فَأَصْلُهُ خِذْلَانُهُ لِعَبْدِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنَّ التَّوْفِيقَ أَنْ لَا يَكْلِكَ اللَّهُ نَفْسَكَ، وَأَنْ الْخِذْلَانَ أَنْ يَخْلِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ.

﴿٢٥﴾ وَأَيْضًا فَيُنْسِيهِ عُيُوبَ نَفْسِهِ وَنَقْصَهَا وَأَفَاتِهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ إِزَالَتُهَا.

﴿٣٤﴾ وَأَيْضًا فَيُنْسِيهِ أَمْرًا نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَالْأَمَهَا، فَلَا يَحْطُرُ بِقَلْبِهِ مَدَاوَاهَا، وَلَا السَّعْيَ فِي إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاهَا الَّتِي تَقُولُ بِهَا إِلَى الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، فَهُوَ مَرِيضٌ مُتَحَنِّنٌ بِالْمَرَضِ، وَمَرَضُهُ مُتَرَامٍ بِهِ إِلَى التَّلَفِ، وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَا يَحْطُرُ بِبَالِهِ مَدَاوَاهُ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ.

قال p: "يُنْصِرُ أَحَدُكُمْ الْقَدَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيُنْسَى الْجُدْعَ فِي عَيْنِهِ" صحيح الجامع.

﴿٣٥﴾ مع أَنَّ الْعَبْدَ يُنْبَغِي عَلَيْهِ أَلَّا يَنْشَغَلَ بِذُنُوبِ الْعِبَادِ وَيُنْسَى نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ سَيُسْأَلُ عَمَّا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ.

﴿٣٦﴾ يقول الحسن البصري رحمه الله: "يا بن آدم، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحبُّ العباد إلى الله مَنْ كان هكذا".

﴿٣٧﴾ يقول الإمام أبو حاتم بن حبان - رحمه الله -: "الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن مَنْ اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره، أراح بدنه ولم يُتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه، هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن مَنْ اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه، عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعدَّر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس مَنْ عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومَنْ عاب الناس عابوه".

﴿٣٨﴾ فَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَضَيَّعَهَا، وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَوَاءَهَا، وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَمَصَالِحِهَا وَحَيَاتِهَا الْأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ الْمُقِيمِ؟

﴿٣٩﴾ وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَوْضِعَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْخَلْقِ قَدْ نَسُوا حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا مِنْ اللَّهِ، وَبَاعُوهَا رَخِيصَةً بِثَمَنِ بَيْعِ الْعَبْنِ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُمْ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَيَظْهَرُ هَذَا كُلُّ الظُّهُورِ يَوْمَ التَّعَابُنِ، يَوْمَ يَظْهَرُ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ غَبِنَ فِي الْعَقْدِ الَّذِي عَقَدَهُ لِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالتَّجَارَةِ الَّتِي ابْتَجَرَ فِيهَا لِمَعَادِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَتَجَرُّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِآخِرَتِهِ.

﴿٤٠﴾ فَالْحَاسِرُونَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّيحِ وَالْكَسْبِ اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَحَظَّهُمْ فِيهَا وَلَذَاتِهِمْ، بِالْآخِرَةِ وَحَظَّهُمْ فِيهَا، فَأَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعُوا بِهَا، وَرَضُوا بِهَا، وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا، وَكَانَ سَعْيُهُمْ لِتَحْصِيلِهَا، فَبَاعُوا وَاشْتَرَوْا وَابْتَجَرُوا وَبَاعُوا آجَلًا بِعَاجِلٍ، وَنَسِيئَةً بِنَفْدٍ، وَعَائِبًا بِنَاجِرٍ، وَقَالُوا: هَذَا هُوَ الْحَرْمُ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فَكَيْفَ أَبِيعَ حَاضِرًا نَفْدًا مُشَاهِدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ بِعَائِبٍ نَسِيئَةً فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ هَذِهِ؟ وَيَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ وَقُوَّةُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَحُبَّةُ الْعَاجِلَةِ وَالتَّشْبُّهُ بِبَنِي الْجِنِّ، فَأَكْثَرَ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ التَّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِي أَهْلِهَا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٨٦] ، وَقَالَ فِيهِمْ: { فَمَا رَحِمْتَ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٦] ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ التَّعَابِنِ ظَهَرَ لَهُمُ الْعَبْنُ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَقَطَّعَ عَلَيْهِمُ النَّفُوسُ حَسْرَاتٍ.

يقول عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.

قال علي بن أبي طالب ع إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَتَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ.

☐ وَأَمَّا الرَّاجِحُونَ فَإِنَّهُمْ بَاعُوا فَايًّا بِيَاقٍ، وَحَسِيسًا بِنَفِيسٍ، وَحَقِيرًا بِعَظِيمٍ، وَقَالُوا: مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا، حَتَّى نَبِيعَ حَظَّنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَالِدَارِ الْآخِرَةِ بِهَا؟ فَكَيْفَ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الْقَصِيرِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَعَفْوَةِ حُلْمٍ، لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى دَارِ الْفَرَارِ الْأَبْتَةِ: قَالَ تَعَالَى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ } [سُورَةُ يُوسُفَ: ٤٥]. وَقَالَ تَعَالَى: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا - فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا - إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا - إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا - كَأَنَّكُمْ يَوْمَ يَرَوْهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [سُورَةُ النَّازِعَاتِ: ٤٢ - ٤٦]. وَقَالَ تَعَالَى: { كَأَنَّكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ } [سُورَةُ الْأَحْقَافِ: ٣٥]. وَقَالَ تَعَالَى: { كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ - قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ - قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ: ١١٢ - ١١٤]. وَقَالَ تَعَالَى: { يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا - يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا - نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا } [سُورَةُ طه: ١٠٢ - ١٠٤].

☐ فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدَ مُوَافَاةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا عَلِمُوا قِلَّةَ لَبِثِهِمْ فِيهَا، وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ، هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ وَدَارُ الْبَقَاءِ - رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْعَبْنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْفَنَاءِ، فَابْتَجَرُوا بِتِجَارَةِ الْأَكْيَاسِ، وَلَمْ يَعْتَرُوا بِتِجَارَةِ السُّفْهَاءِ مِنَ النَّاسِ، فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ التَّعَابِنِ رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ وَمِقْدَارُ مَا اشْتَرَوْهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَائِعٌ مُشْتَرٍ مُتَجَرٍّ، وَكُلُّ النَّاسِ يَعْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَبُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا.

دخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: إن لنا بيتاً نوجّه إليه صالح متاعنا. قال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا. قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ } [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١١١].

☐ فَهَذَا أَوَّلُ نَقْدٍ مِنْ ثَمَنِ هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَاجِرُوا أَيُّهَا الْمُفْلِسُونَ، وَيَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا التَّمَنِ، هُنَا ثَمَّنٌ آخَرٌ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ التِّجَارَةِ فَأَعْطِ هَذَا التَّمَنَ { التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١١٢].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ - تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [سُورَةُ الصَّفِّ: ١٠ - ١١].

☐ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الدُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَتَشْغَلُهُ بِالتِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

﴿٤٥﴾ [فَصَلِّ الْمَعَاصِي تَرْبِيلُ النِّعَمِ]

☐ وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تَرْبِيلُ النِّعَمِ الْحَاضِرَةِ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الْوَاصِلَةَ، فَتَرْبِيلُ الْحَاصِلِ، وَتَمْنَعُ الْوَاصِلِ، فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودَهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتَحْلَبَ مَفْقُودَهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً، سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الْجَالِيَةِ لَهَا طَاعَتَهُ، وَآفَاتِهَا الْمَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَلْهَمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ حَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا.

☐ وَمِنَ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهِدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَحْبَابٍ مَنْ أُرِيَلَتْ نِعَمُ اللَّهِ عَنْهُمْ بِمَعَاصِيهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَأَنَّهُ مُسْتَنْئَى مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، أَوْ مَخْصُوصٌ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا عَلَيْهِ، وَوَاصِلٌ إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ، فَأَيُّ جَهْلٍ أُنْبَغُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.